الفصل الرابع

الإفاقة من السكْر

كان أبرز مظاهر تحولي إلى الإسلام، هو رفضي المهذب لاحتساء الخمر، واختفاء زجاجة النبيذ الأحمر من فوق مائدة طعامي. ولقد ظننت في بادئ الأمر أنني لن أستطيع النوم جيداً من دون جرعة من الخمر في دمي، بل وأن النوم سيجافيني من البداية. ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماماً. فنظراً لأن جسمي لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول، أصبح نبضي في أثناء نومي أهدأ من ذي قبل. كما قد نحينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد، بل إن رائحة هذا اللحم الضار أصبحت تسبب لي شعوراً بالغثيان.

❖ ❖ ❖

كنت في جاهليتي الشخصية «زمن الظلام» قبل اعتناقي الإسلام، خبيراً بالخمور، حتى إنني كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لساني. وكان التمييز بين أنواع الخمور «الذكورية» و «الأنثوية» أيسر منه بين الأنواع المختلفة داخل كل مجموعة منهما، حيث يتطلب الأمر بالنسبة لكل حالة تحديد الزيت الأثيري الخاص بها عن طريق التذوق. ولقد أتاحت لي الحياة الدبلوماسية، وبصفة خاصة حفلات العشاء الرسمية في ختام مؤتمرات وزراء حلف شمالي الأطلنطي، فرصة هائلة لاكتساب هذه الخبرة.

لقد «تدربت» بنشاط وجد، لأنمي وأدرب ملكة التفرقة والتمييز بين أنواع النبيذ. وفي أثناء عملي بباريس في عام ١٩٦٧، كنت في عطلة نهاية الأسبوع

أحجز عن طريق دليل ميشلان منضدة في أحد المطاعم ذات النجمة الواحدة. وكنت أختار النبيذ بوساطة الهاتف، وأطلب فتح الزجاجة على الفور، حتى يتأكسد النبيذ بدرجة كافية، ويصل إلى كامل نضجه ومذاقه عند وصولي إلى المطعم. وكنت في المساء أختار قائمة طعامي بما يناسب النبيذ، وليس العكس.

عندما كنت أشغل منصب المستشار الأول بالسفارة في بلجراد، في عامي ١٩٧٧/ ١٩٧٨، كنت أقيم حفلات اختبار وتذوق للنبيذ، أدعو إليها الأصدقاء. وكنت أعرض على ضيوفي كيف يمكن عن طريق سقف الحلق تحديد أنواع الكروم والتربة وطرائق القطف وطرائق التخمير والسَّنة، مستخدماً أنواعاً من النبيذ الأبيض الشفاف، كنت أجلبها من متاجر متخصصة، ومن مناطق مختلفة. وكنت «بوصفي تربوياً» أعرض أنواع النبيذ على نحو تتتابع فيه أنواع تجمع بينها صفات مشتركة، وتميز بعضها عن بعض في صفات أخرى. ولقد تطورت قدرات بعض ضيوفي، في واقع الأمر، بحيث استطاعوا بعد سابع محاولة للتذوق أن يميزوا بين أنواع النبيذ المختلفة تبعاً لمعايير مختلفة.

❖ ❖ ❖

لقد وجدت مع ذلك أن التحريم القرآني للخمر والمخدرات[1] ليس ضرورة اجتماعية فحسب، وإنا هو أيضا منفعة شخصية للفرد، إذ يمكّنه من أن يكون متيقظاً صافي الذهن دائماً. ومن ثم، أنهيت هذه المرحلة من حياتي مرة واحدة، وإلى الأبد. فإن الإنسان، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله، يفاخر بأنه أعظم المخلوقات. فنحن البشر نستطيع أن نمعن التفكير في العالم من حولنا وفي

(١) خطوات تحريم المخدرات، انظر هلموت جتيه: «القرآن وتفسيره» شتوتجارت (١٩٧١) ص ٢٦٤، ص ٢٧٦.

أحوالنا، وأن نتصرف بحكمة. وهذه الصفات التي ترقى بنا، هي الصفات ذاتها التي ندمرها على نحو منتظم بتعاطي الخمور والمخدرات. ونحن بذلك نمتهن أنفسنا ونحط من قدرنا داخل المنظومة الكونية، وننحدر بالتالي إلى مكانة أدنى من مكانة الحيوانات، التي لا يغيب عنها وعيها أبداً. فإدمان تعاطي الخمور والمخدرات نوع من التشويه الذهني الذاتي. وكانت مديرة منزلي الصربية في بلجراد مثالاً منذراً لي، إذ كانت تعود دائماً إلى إدمان الخمر، حتى بعد علاج مدة طويلة.

إن مشهد مدمني تعاطي الخمر مشهد مهين، يبعث على الاكتئاب، ويثير الشفقة. وكثيراً ما يقدم هؤلاء على الانتحار. وهم يعلمون حقيقة حالهم، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه، لأن الخمر سلبتهم العزيمة والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار.

من النادر أن تجد عدد مدمني الخمر في المجتمع الأحدث في المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم في ألمانيا. فهم يمسكون - من وقت الظهيرة - بكأس الراكيا في يد، وبالسيجارة في اليد الأخرى، مبرهنين بذلك على أنهم لم يعودوا سادة أنفسهم. وهم، من الناحية الدينية، يمارسون بذلك نوعاً من «الشرك بالله»، لأن الخمر ونيكوتين الدخان أهم عندهم من كل ما عداهما في العالم بمن في ذلك ربهم الذي خلقهم. فهم يستطيعون - في ظنهم - أن يعيشوا من دونه، ولكن ليس من دون الراكيا.

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر إلى منع البدء في تعاطيها، حيث لا يبدو ضاراً في حالة احتساء كأس واحدة. فالكأس الواحدة التي لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما أن تصبح كؤوساً عديدة. ومن المعتاد ألا يرى المدمن

أنه معرض للخطر، وأن يقدِّم مالا حصر له من الأعذار والحجج لتسويغ اعتياده التدخين أو احتساء الخمر، في هذا الوقت بصفة خاصة، ومن ذلك كون المدمنين سعداء أو تعساء، يعانون من ضغط العمل أو في إجازة منه، جماعة أو فرادى، مرضى أو أصحاء، جوعى أو شبعى.

لقد واجهت بوصفي رئيساً مسؤولاً هذه المشكلة. فكنت، عندما أنبه أحد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد، كنت أُعَدُّ معتدياً على حقه في أن يعبر عن شخصيته بحرية (وأواجه بذلك مشكلة مع مستشار شؤون العاملين). ومع ذلك، كان مستشار شؤون العاملين نفسه يستطيع أن يتأكد في اليوم التالي أن الموظف المعني صار في واقع الأمر مدمناً للخمر. ومن ثم، فإنه يعد رسمياً من هذه اللحظة مريضاً بإدمان الخمر.

إن من لا يتعاطى الخمر، إذا وُجد بين سُكارى، سرعان ما يكتشف أنه في مكان خطأ، إذ يرى هؤلاء أنفسهم ظرفاء ومبدعين وقادرين على التخيل. ولقد استطعت أن أثبت لنفسي عكس ذلك تماماً، عندما قمت بعزف مقطوعات موسيقية بذاتها على إحدى الآلات النحاسية وتسجيلها ثلاث مرات. وكنت بين المرة والأخرى أحتسي كأسين من ويسكي البربون من النوعية المفضلة لدي. وكان توقعي أنّ عزفي سيكون أفضل في كل مرة أحتسي قبلها الخمر، لكن جهاز التسجيل كشف الحقيقة الصاعقة!

شعرت بخجل شديد من سلوك بعض مواطنيَّ ونحن على متن إحدى طائرات شركة لوفتهانزا، في طريقنا إلى جدة. . فكنا كلما اقتربنا من السعودية بمناخها الشديد الجاف، ازداد طلبهم، وبإلحاح شديد للخمر حتى إنهم طلبوا من المضيف

أربع زجاجات في وقت واحد - كما لو أن المرء يستطيع أن يجتر الخمر بعد ذلك كالجمل. ولقد كان مشهدهم مخزياً، وهم يغادرون الطائرة حاملين في أيديهم شجرة عيد الميلاد مغلفة بالبلاستيك، ويترنحون من السكر.

أثبتت لي هذه الوقائع أنه قد لا يكون هناك عائق في طريق انتشار الإسلام في ألمانيا أقوى من التحريم القرآني للخمر (ولحم الخنزير). فلن يتنازل الألماني في بافاريا ولا في كولونيا عن طعامه المفضل من لحم الخنزير، ولا عن خمره المفضلة.

لقد نظم ليسنج في القرن الثامن عشر قصيدة ساخرة في هذا الصدد، بعنوان «الأتراك»، يتغنى فيها بجمال الفتيات التركيات، وبحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ورغبته بالتالي في أن يكون تركياً. ولكنه سرعان ما يعدل عن هذه الرغبة، ويصرح بأنه لا يريد أن يكون تركياً لأن الأتراك لا يشربون الخمر. وما كان يمكن أن يكون مجديًا لليسنج على الإطلاق أن يصير تركياً، وإن كان الأتراك يتعاطون الخمر الآن، و يعاقب القانون في تركياً حالياً على تعدد الزوجات.

إن المسلم، بتناوله كوباً من الماء أو العصير بين أناس يحتسون الخمر، يفسد عليهم بهجتهم، لأن ما يفعله ينطوي على عقاب معنوي لهم. لذلك، أصبح من النادر بعد اعتناقي الإسلام أن نُدعى، أنا وزوجتي، إلى حفلات خاصة أو إلى حفلات رقص، وكأن المرء لا يسعد إلا بالخمر، وهكذا، أصبحنا معزولين«منبوذين».

كثيراً ما يساق اختلاف البيئة المناخية حجةً ضد التحريم الإسلامي للخمر ولحم الخنزير في مجتمعنا - (يقصد المجتمع الألماني) - بدعوى أن هذا التحريم لا يناسبه مناخياً. وهذه حجة تفتقر إلى المنطق. فالحقيقة أن أضرار الخمر في العصر

التكنولوجي أكبر بكثير منها في القرن السابع، حيث كان أقصى ما يمكن أن يحدث للمخمور هو أن يسقط من فوق صهوة جواده، أو أن يعتدي بالضرب على زوجته وأطفاله، أو أن يقطع أوتار ساق الجمل. (كان وقوع حدث شرير من هذا القبيل مناسبة لنزول إحدى آيات تحريم الخمر في القرآن)[1].

وما يزال النساء والأطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر، وكذلك تسقط الطائرات اليوم تحت تأثير الخمر. ولقد تسبب قائد إحدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع أسوأ كارثة بيئية حتى الآن. وعلى الرغم من توافر إحصاء عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فإنه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التي تصيب المجتمع الغربي بسبب إدمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية، تتجاور أقسام علاج الإدمان وأقسام علاج الأمراض العقلية، لما ينطوي عليه ذلك من إنذار، إن عاجلاً أو آجلاً. هذا إذا ما دمر العقل قبل أن يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحداً من ضحايا حوادث المرور التي تقع تحت تأثير الخمر. ففي نهاية عام دراسي في كلية الاتحاد بشينيكادي بولاية نيويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة «بطريقة الأوتوستوب»، (أي إيقاف السيارات والانتقال بها مجاناً من موقع إلى آخر). وفي أثناء هذه الجولة، تعرضت يوم ٢٨ من يونيو عام ١٩٥١ لحادث سيء بالقرب من هولي سبرنجز (بولاية مسيسيبي). فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من أتلانتا (بولاية جورجيا) إلى ممفيس في ولاية مسيسيبي، ظهر أمامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح. ولا أتذكر شيئاً عما حدث بعد ذلك. ولكني علمت فيما بعد أن هذا الشبح لم يكن سوى سيارة

(١) سورة ٢ آية ٢١٩، سورة ٤ آية ٤٣، سورة ٥ آية ٩٠.

اصطدمت بنا، كان سائقها ومرافقه قد احتسيا كميات كبيرة من الخمر في تنيسي، التي تسمح باحتسائه في أثناء القيادة، قبل أن يتوجها إلى مسيسيبي التي تمنع احتساءه في أثنائها. وكانت خسائرنا أقل فداحة من خسائرهم، لأننا كنا نركب سيارة شيفروليه مصنوعة في عام ١٩٤١، أي قبل الحرب، وكانت أشد متانة من السيارة التي كانوا يركبونها وهي شيفروليه من إنتاج عام ١٩٤٣، أي في أثناء الحرب.

ولقد تبين لي بوضوح أن ذراعي المصابة الآن، والتي كنت أضعها على وسادة المقعد الخلفية، قد وقتني مما هو أكثر. وكان من الواضح أيضاً أنني ما كنت لأنجو لو أن قامتي كانت أقصر بمقدار ثمانية سنتيمترات فقط، لأنني كنت سأنكفئ في هذه الحالة على أنفي وعيني بسرعة نحو ١٦٠ كيلو متراً في الساعة. ومع ذلك، كانت خسارتي في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني. وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقني وشفتي السفلى، سألني قائلاً: إنه من الممكن إصلاح وجهي بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل. وأضاف قائلاً: إن «مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدخر لك يا عزيزي شيئاً خاصّاً جداً».

ولقد كنت أفكر في هذا الأمر، وأنا أتجول في هولي سبرنجز بذراع مربوطة وضماد يحيط بالذقن وفم مخيط. وكنت أفكر أيضاً فيما أرفّه به عن نفسي في يوم عيد ميلادي العشرين. ولكن كل شيء كان يؤلمني.. تناول الطعام أو الشراب، أو التنزه، أو الإجابة عن الأسئلة. وأخيراً ذهبت لأقص شعري، فهذا على الأقل لا يؤلم. ولم أدرك المغزى الحقيقي لنجاتي وبقائي على قيد الحياة إلا بعد ثلاثين سنة، عندما أشهرت اعتناقي للإسلام.